المنقذ من الضلال

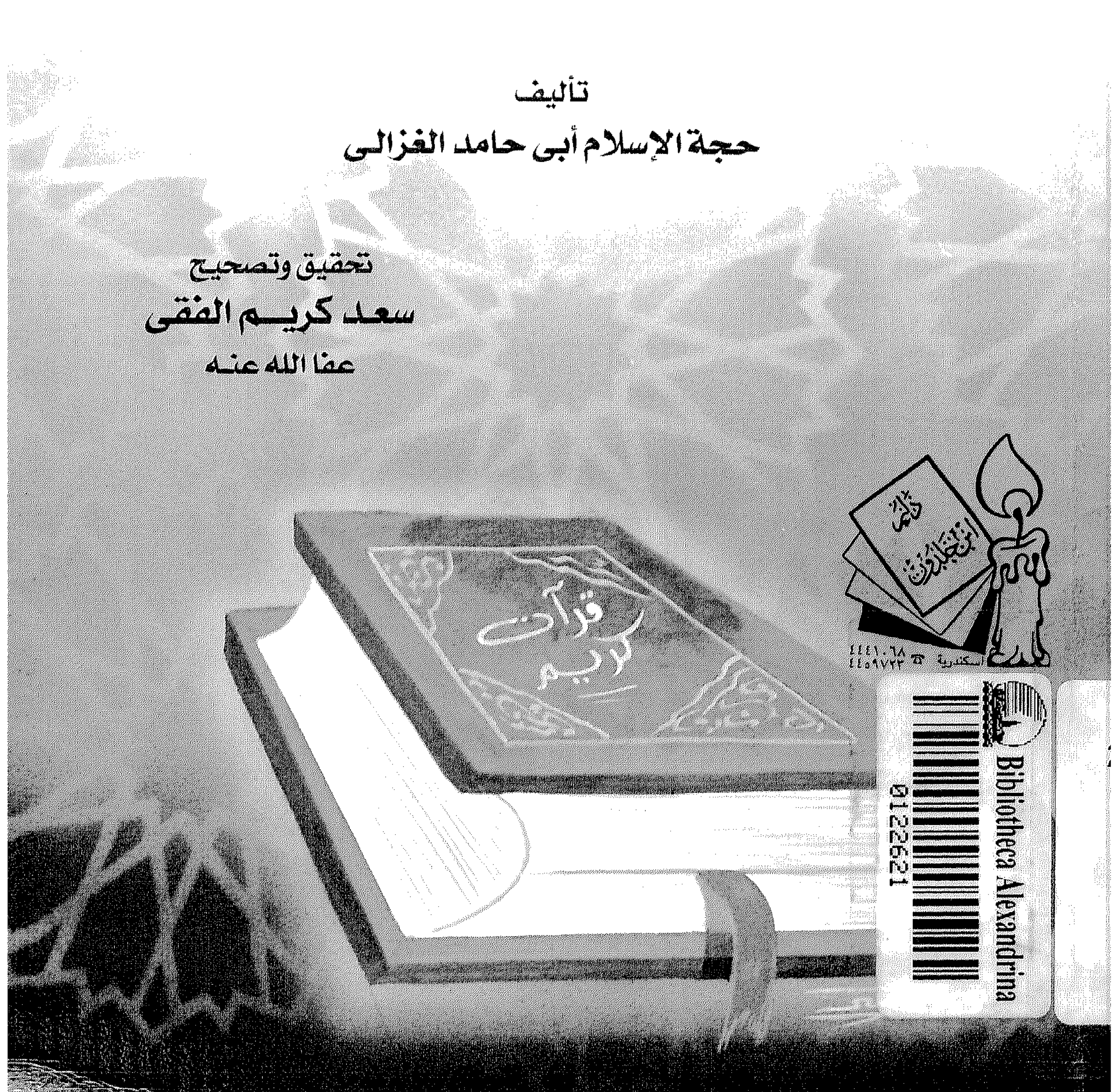
تأليف

حجة الإسلام أبى حامد الغزالى

تحقيق وتصحيح

سعد كريم الفقى

عفا الله عنه





تأليف

حجة الإسلام أبى حامد الغزالى

تحقيق وتصحيح

سعد كريم الفقى

عفا الله عنه



بســـم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين نحمده سبحانه وتعالى ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلاهادى له وأشهد لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فتح الله به قلوباً غلفا وآذانا صماً وأعينا عميا أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله تبارك وتعالى وخير الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار وما قل وكفى خير مما كثر وألهى وإنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين ...

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ② ﴾ .

كل باك فسيبكـى وكل ناع فسينعـى

وكل مذخور سيفنى ليس غير الله يبقى

من علا فالله أعلى

ثم أما بعد فإن هذا السفر الذى بين أيدينا الموسوم (**بالمنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال**) .

لحجة الاسلام أبى حامد الغزالي يعرض فيه جلاء العقيدة الإسلامية من علم وفقه وحكمة ليخلص الناس من قيود الجهل وبرائن الضلال ويعيد المسلم إلى جادة الصواب وإلى مشكاة الحق المبين فى العقيدة والزهد وتناول موضوعاته بأسلوب شيق رائع وحجج قاطعة دامغة .

نسأل الله تبارك وتعالى أن ينفعنا بما فيه إنه نعم المولى ونعم النصير وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وكتب

أبو المنذر سعد كريم الدرعمى

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

التعريف بالمؤلف :

هو حجة الإسلام الفقيه الزاهد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى أبو حامد الفقيه تميز بقوة الذكاء وسعة العقل فكان زاهد تقى ورع عابد فقيه مدافع عن الاسلام .

مولـده :

ولد الغزالى سنة ٤٥٠ هجرية فى طبران أحد مدن طوس في خراسان

ونشأ الغزالى فى أسرة فقيرة إلا أنه كان محباً للعلم ولدار الدرس .

اتصل بإمام الحرمين الشيخ أبو المعالى وتتلمذ على يديه .

وطاف الغزالى الكثير من البلاد فى طلب العلم فأقام فى كل من بغداد والشام والحجاز والقدس فتعلم ودرس واتسعت ثقافته باتساع معارف عصره سلك طريق الفلسفة والتصوف في بادىء حياته ثم بعد ذلك صحح المسار وأصبح زاهدا ورعاً بعيداً عن انحرافات الصوفية ونظرياتها وشطحاتها الضالة المضلة .

وفاتـه :

توفى رحـمه الله سنه ٥٠٥هـ فى طوس بنيسابور مسقط رأسه رحم الله الغزالى .

مصنفاته :

للغزالى مصنفات كثيرة فى مختلف العلوم والمعرفة .

فقد صنف فى الأصول والفقه والفلسفة والتصوف والاخلاق وغير ذلك ومن أهم مؤلفاته رحمه الله :

إحياء علوم الدين .

وأسرار الصلاة .

وآفات اللسان .

وأسرار الحج .

وأسرار اتباع السنه .

وإلجام العوام عن علم الكلام والتوحيد وإثبات الصفات .

وغيرها الكثير منها ما طبع ومنها ما زال مخطوطا طئ دار الكتب .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

عونك اللهم

قال الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى رحمه الله :

الحمد لله الذى تفتتح بحمده كل رسالة ومقالة ، والصلاة على محمد المصطفى صاحب النبوة والرسالة ، وعلى آله وصحبه الهادين من الضلالة ،

أما بعد : فقد سألتنى أيها الأخ فى الدين ، أن أبث إليك غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها [١] ، وأحكى لك ما قاسيته فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع من حضيض التقليد إلى شعاع الاستبصار ، وما استفدته أولاً من علم الكلام ، وما اجتويته [٢] ثانياً من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الإمام ، وما ازدريته ثالثاً من طرق أهل التفلسف ، وما ارتضيته آخراً من طرق أهل التصوف ، وما انجلى لى فى تضاعيف تفتيشى عن أقاويل الخلق من آثار الحق ، وما صرفنى عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، وما دعانى إلى معاودته بنيسابور بعد طول المدة ، فانتدبت لإجابتك إلى طلبتك بعد الوقوف على صدق رغبتك ، وقلت مستعيناً بالله تعالى ، ومتوكلاً عليه ، ومستوفقاً منه ، وملتجأ إليه :

اعملوا ــ أحسن الله تعالى إرشادكم ، وألان للحق قيادكم ــ أن اختلاف الخلق فى الأديان والملل ، ثم اختلاف الأمة فى المذاهب ، على كثرة الفرق ، وتباين الطرق ، بحر عميق ، غرق فيه الاكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ،

---

(١) أى بيان حقائقها وأسرارها والتغلغل فى أعماقها .

(٢) أى كرهته .

وكل فريق يزعم أنه الناجى ، و﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[1] .

وهو الذى وعدنا به سيد المرسلين ﷺ ، وهو الصادق المصدوق حيث قال : « ستفترق أمتى على نيف وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة »[2] فقد كان ما وعد أن يكون .

ولم أزل فى عنفوان ـ أى عنصر ـ شبابى وريعان عمرى منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، أتقحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على باطنيته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا واجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ،

ولا زنديقاً[3] معطلاً[4] إلا وأتجسر[5] وراءه للتنبه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى ودينى من أول أمرى ، وريعان عمرى ، غريزة من الله ، وفطرة وضعها فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحطت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت عنى العقائد الموروثة ،

---

(١) سورة الروم الآية ٣٢

(٢) حديث صحيح رواه الترمذى وأبو داود وابن ماجه بألفاظ متقاربة .

(٣) الزنديق : هو الذى يظهر الإيمان ويبطن الكفر .

(٤) هو المنكر والمأول لصفات الله تعالى

(٥) أتجسر : أمضى وأسرع .

على قرب عهد سنى بالصبا ، إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على النصرانية ، وصبيان اليهود لا يكون لهم نشوء إلا على اليهودية ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث المروى عن النبى ﷺ ، حيث قال : « **كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه** »[1] فتحرك باطنى إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية ، حقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفى تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات .

فقلت فى نفسى أولا : إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هى ؟ فظهر لى **أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم** ، ولا يتسع العقل لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغى ان يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى بإظاهر بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهباً ، والعصى ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً ، فإنى إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، لو قال قائل : لا ، بل الثلاثة أكثر ، بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعبانا ،وشاهدت ذلك منه ، لم أشك فى معرفتى بكذبه ، ولم يحصل لى منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ! فأما الشك فيما علمته فلا .

ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه على هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى .

---

(١) حديث صحيح رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

القول فى

مداخل السفسطة[1] وجحد العلوم

ثم فتشت عن علومى ، فوجدت نفسى عاطلاً عن علم موصوف بهذه الصفة ، إلا فى الحسيات والضروريات ، فقلت : الآن بعد حصول اليأس ، لا مطمع فى اقتباس المتيقنات إلا من الجليات ، وهى الحسيات والضروريات فلابد من إحكامها أولاً ، لأبين أن يقينى بالمحسوسات ، وأمانى من الغلط فى الضروريات ، من جنس أمانى الذى كان من قبل فى التقليدات ، ومن جنس أمان أكثر الخلق فى النظريات ، أم هو أمان محقق لا غرر فيه ولا غائلة ؟ فأقبلت بجد بليغ أتأمل فى المحسوسات والنظريات ، وأنظر هل يمكننى أن أشك نفسى فيها ؟ فانتهى بى طول التشكك إلى أنه : لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات أيضاً ، وأخذت تتسع للشك فيها ، وأقول : من أين الثقة بالمحسوسات ، وأقولها حاسة البصر ، وهى تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفى الحركة ؟ ثم بالتجربة والمشاهدة ، بعد ساعة تعرف أنه يتحرك ، وانه لم يتحرك دفعة بغتة ، بل على التدريج ذرة ذرة ، حتى لم يكن له حالة وقوف ، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً فى مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار .

هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته ، فقلت : فقد أبطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً ، ولعله لا ثقه إلا بالعقليات التى هى من الأوليات ، كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفى والإثبات لا يجتمعان فى الشىء الواحد ، والشىء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، معدوماً موجوداً ، واجباً محالاً . فقالت

---

(١) هى كلمة يونانية مأخوذة من كلمة سفسطائى وتعنى الذى يتكلم بالفلسفة والمنطق ويجادل بغير الحق وينقض الحقائق الشرعية والنقلية عن طريق عقله المريض .

المحسوسات : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقاً بى ، فجاء حاكم العقل بكذبى ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى ؟ فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر إذا أجلى كذب العقل فى حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه ، وعدم تجلى ذلك الإدراك لا يدل على استحالته ، فتوقفت النفس فى جواب ذلك قليلاً ، وأيدت أشكالها بالمنام ، وقالت : أما تراك تعتقد فى المنام أموراً ، وتتخيل أحوالاً ، وتعتقد لها ثبوتاً واستقراراً ، ولا تشك فى تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ؟ فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التى أنت فيها ؟ لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة إليها ! فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لاحاصل لها ، ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم ، إذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم ــ التى إذا غاصوا فى أنفسهم ، وغابوا عن حواسهم ــ أحوالاً لا توافق هذه المعقولات . ولعل تلك الحالة هى الموت ، إذا قال سيد الأولين والآخرين عليه الصلاة والسلام : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا »[1] ولعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة ، فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك :

﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[2] .

فلما خطرت لى هذه الخواطر ، وانقدحت فى النفس ، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر ، إذ لم يمكن دفعه إلا بدليل ولم يمكن نصب دليل إلا من

---

(١) حديث ضعيف وهذا اللفظ قاله على بن أبى طالب .

(٢) سورة ق الآية ٢٢

تركيب العلوم الأولية ، فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل . فأعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين ، أنا فيها على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض والاعتلال ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح اكثر المعارف فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة ، ولما سئل رسول الله ﷺ عن الشرح ما معناه فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ﴾[1] قال : « هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب » فقيل : وما علامته ؟ فقال : « التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » [2] .

وهو الذى قال فيه ﷺ : « إن الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره »[3] . فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من النور الإلهى فى بعض الأحايين ، ويجب الترصد له كما قال ﷺ: « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها »[4] .

والمقصود من هذه الحكاية أن تعلم كمال الجد فى الطلب حتى أدى إلى طلب ما لا يطلب . لأن الأوليات ليست مطلوبة ، فإنها حاضرة ، والحاضر إذا طلب عز واختفى ومن طلب ما لا يطلب فلا يتهم فى طلب ما يطلب بالتقصير .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٥ .

(٢) رواه ابن جرير فى التفسير .

(٣) حديث حسن رواه أحمد فى المسند والترمذى فى السنن .

(٤) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير .

القول فى أصناف الطالبين

ولما كفانى الله تعالى مؤنة هذا المرض ـ بفضله وسعة جوده ـ انحصرت أصناف الطالبين عندى فى أربع فرق :

ـ **المتكلمون** : وهم يدعون أنهم أهل الرأى والنظر .

ـ **والباطنية** : وهم يدعون أنهم أصحاب التعليم المخصوصون بالاقتباس من الإمام القائم المعصوم .

ـ **والفلاسفة** : وهم يدعون أنهم أصحاب المنطق والبرهان .

ـ **والصوفية** : وهم يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والمكاشفة فقلت فى نفسى : الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة ، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق[1] ، فإن شذ الحق عنهم فلا يبقى فى درك الحق مطمع ، إذ لا مطمع فى الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته ، إذ من شرط المقلد أن لا يعلم أنه مقلد ، فإذا علم ذلك انكسرت عنه زجاجة تقليده ، وهو شعب لا يرأب[2] ، وشعث لا يلم[3] بالتلفيق والتأليف ، إلا أن يذاب بالنار ، ويستأنف له صنعة أخرى مستجدة .

فانتدبت لسلوك هذه الطرق ، واستقصاء ما عند هذه الفرق مبتدئاً بعلم الكلام ، ومثنياً بطرق الفلسفة [4] ، ومثلثاً بتعليمات الباطنية ، ومربعاً بطريق الصوفية .

---

(١) أى أنهم ـ فى نظره ـ أصحاب الطريق الصواب وأهل السنة والجماعة العاملين بكتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ .

(٢) أى به صدع وفرق لايلتئم

(٣) أى لا يجتمع .

(٤) الفلسفة كلمة يونانية الأصل مكونة من شقين فيلو سوفيا وتعنى محبة الحكمة ورائدها الفيلسوف اليونانى سقراط ومن بعده أرسطو طاليس وعنهم أخذ العرب .

القول فى مقصود علم الكلام وحاصله

ثم إنى ابتدأت بعلم الكلام ، فحصلته وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت ما أردت تصنيفه ، فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير واف بمقصودى ، وإنما المقصود منه حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة . فقد أنهى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله ﷺ عقيدة هى الحق ، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمقدماته القرآن [١] والأخبار ، ثم بها ، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها ، فأنشأ الله تعالى طائفة من المتكلمين ، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثة ، على خلاف السنة المأثورة ، فمنه نشأ علم الكلام وأهله ، ولقد قام طائفة منهم بما ذبوا [٢] له فأحسنوا الذب عن السنة ، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة ، والتغيير فى وجه ماأحدث من البدعة ، ولكنهم اعتمدوا فى ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم ، اضطرهم إلى تسليمها إما التقليد ، أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار ، وكان أكثر خوضهم فى استخراج مناقضة الخصوم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم ، وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً ، فلم يكن الكلام فى حقى كافياً ، ولا لدائى الذى كنت أشكوه شافياً .

نعم ، لما نشأت صنعة الكلام ، وكثر الخوض فيها ، وطالت المدة ،

---

(١) قال تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾ وورد عنه ﷺ أنه قال « ما رأيت شيئا ينفعكم فى دينكم ودنياكم ومحياكم ومماتكم إلا أمرتكم به وما رأيت شيئا يضركم فى دينكم ودنياكم ومحياكم ومماتكم إلا نهيتكم عنه فما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » .

(٢) أى دافعوا عنه وانتصروا له .

تشوف[1] المتكلمون إلى مجاوزة الذب [2] عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور، وخاضوا فى البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها . ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم لم يبلغ كلامهم فيه الغايه القصوى ، فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة فى اختلافات الخلق . ولا يبعد أن يكون قد حصل ذلك لغيرى ، بل لست أشك فى حصول ذلك لطائفة ، ولكن حصولا مشوبا بالتقليد فى بعض الأمور التى ليست من الأوليات .

والغرض الآن حكاية حالى ، لا لإنكار على من استشفى به ، فإن أدوية الشفاء مختلفة الداء ، فكم من دواء ينتفع به عليل ، ويستضر به آخر !

القول فى
حاصل الفلسفة

وما يذم منها وما لا يذم ، وما يكفر فيه قائله وما لا يكفر ، وما يبدع فيه وما لا يبدع ، وبيان ما سرقوه من كلام أهل الحق ومزجوه بكلامهم لترويج باطلهم فى درج ذلك ، وكيفية حصول نفرة النفوس من ذلك الحق ، وكيفية استخلاص صرف حقائق الحق الخالص من الزيف والبهرج[3] من جملة كلامهم .

ثم إنى ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة[4] ، وعلمت يقيناً أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غورٍ وغائلة .

---

(١) أى تطلع واشتقاق .

(٢) الذب : أى الدفاع .

(٣) قوله البهرج : أى الفاسد المزيف .

(٤) يقصد بالفلسفة هنا الفلسفة الإسلامية التى اشتغل بها بعض فلاسفة الإسلام ولا شك أن سلوك هذا الطريق فى الدفاع عن الدين طريق فاسد قاصر ولا خير فيه .

فإذا ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقاً . ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنان عنايته وهمته إلى ذلك .

ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم ـ حيث اشتغلوا بالرد عليهم ـ إلا كلمات مبددة معقدة ، ظاهرة التناقض والفساد ، لا يظن الاغترار[1] بها لعاقل عامى ، فضلاً عمن يدعى دقائق العلوم . فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمى فى عماية ، فشمرت عن ساق الجد فى تحصيل ذلك العلم من الكتب ، بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ ومعلم، فأقبلت على ذلك فى أوقات فراغى من التدريس والتصنيف فى العلوم الشرعية، وأنا ممنو[2] بالتدريس والإفادة لثلاث مئة نفر من الطلبة ببغداد . فأطلعنى الله سبحانه وتعالى بمجرد المطالعة فى الأوقات المختلسة على منتهى علومهم فى أقل من سنتين ، ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة ، أعاوده وأتفقد غوائله وأغواره [3] ، حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس ، وتحقيق وتخييل اطلاعاً لم أشك فيه .

فاسمع الآن حكايته وحكاية حاصل علومهم ، فإنى رأيتهم أصناف ، ورأيت علومهم أقساما ، وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم وصمة[4] الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل ، تفاوت عظيم فى البعد عن الحق والقرب منه .

* * *

---

(١) الإغترار : الخداع .

(٢) قوله ممنو : أى منعم على ويقصد أنعم الله عليه .

(٣) أى أفتتش فى خفاياه ومستوراته ومسائله .

(٤) أى العيب والعار .

فصل فى أصنافهم
وشمول سمة[1] الكفر كافتهم

اعلم أنهم على كثرة فرقهم ، واختلاف مذاهبهم ، ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : الدهريون ، والطبيعيون ، والإلهيون :

ـ **الصنف الأول : الدهريون** ، وهم : طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، ولا بصانع ، ولم يزل الحيوان من نطفة من حيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبدا ، وهؤلاء هم الزنادقة .

ـ **الصنف الثانى : الطبيعيون** ، وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوان ، فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر[2] حكيم ، مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ، ولا مطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان ، لا سيما لبنية الإنسان ، إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم فى قوام قوى الحيوان به ، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم ، ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا ، فذهبوا إلى أن النفس تموت فلا تعود ، فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار ، والحشر والنشر ، والقيامة والحساب ، فلم يبق للطاعة عندهم ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فانحل عنهم اللجام ، وانهمكوا فى الشهوات

---

(١) سمة : أى صفة وعلامة ويقصد بقوله (أصنافهم) أى أنواع الفلاسفة .

(٢) فاطر : أى خالق ومبدع .

انهماك الأنعام .

فهؤلاء أيضاً زنادقة ، لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله وصفاته واليوم الآخر ، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

ـ **الصنف الثالث : الإلهيون** ، وهم المتأخرون منهم ، مثل : سقراط[١] ، وهو أستاذ أفلاطون[٢] ، وأفلاطون أستاذ أرسطاطاليس ، وأرسطاطاليس هو الذى رتب لهم المنطق ، وهذب العلوم ، وخمر لهم ما لم يكن مخمراً من قبل ، وأوضح لهم ما كان المحى من علومهم .

وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية ، وأرادوا فى الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم ، ﴿ **وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ** ﴾[٣] .

بتقابلهم ، ثم رد أرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط ، ومن كان قبله من الإلهين ، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ، إلا أنه استبقى أيضاً من رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق للنزوع عنها ، فوجب تكفيرهم ، وتكفير شيعهم من المتفلسفة الإسلاميين ، كابن سينا[٤] والفارابى[٥] وأمثالهما.

على أنه لم يقم بعلم أرسطاطاليس أحد من متفلسفة الإسلاميين كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يخلو عن تخبيط وتخليط يتشوش فيه

---

(١) هو فيلسوف يونانى وضع اسس ومبادئ الفلسفة والأخلاق .

(٢) أفلاطون هو فيلسوف يونانى تتلمذ على يد سقراط وهو من اعمدة الفلسفة

(٣) سورة الأحزاب الآية ٢٥

(٤) هو الحسن بن عبدالله بن سينا الرئيس أبو على وله مصنفات فى مختلف المجالات منها الطب والمنطق والطبيعة وله نحو مائة كتاب وأشهرها « القانون ».

(٥) هو محمد بن محمد بن طرخان بن اوزلغ أبو نصر الفارابى وهو من اكبر فلاسفة المسلمين ، مستعرب ، شرح مؤلفات أرسطو وله نحو مائة كتاب .

قلب المطالع حتى لا يكاد يفهم ، وما لا يفهم كيف يرد أو يقبل ؟ ومجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس[1] ، بحسب نقل هذين الرجلين ، ينحصر فى ثلاثة أقسام :

- قسم يجب التكفير به .
- وقسم يجب التبديع[2] به .
- وقسم لا يجب إنكاره أصلاً ، فلنفصله .

* * *

(١) هو فيلسوف يونانى شهير تلميذ أفلاطون وهو استاذ ومربى القائد المعروف الاسكندر المقدونى وهو الذى رتب علم المنطق ووضع قواعده .

(٢) أى أنه بدعة فى الاسلام لم يفعلها الرسول ولا الصحابة وهى شئ محدث فى الدين يضاهى الطريقة الشرعيه يراد به مزيد من التقرب إلى الله تعالى إلا أنه لم يكن موجوداً فى عهد رسول الله ﷺ ولا عهد صحابته والدين غير محتاج لزيادة قال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ .

فصل فى
أقسام علومهم

اعلم أن علومهم بالنسبة إلى الغرض الذى نطلبه سته أقسام : رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وإلهية ، وسياسية ، وخلقية .

١ ــ أما الرياضية : فيتعلق بعلم الحساب ، والهندسة ، وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق شىء منه بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً ، بل هى أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها . وقد تولدت منها آفتان :

إحداهما أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها ، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده فى الفلاسفة ، ويحسب أن جميع علومهم فى الوضوح ووثاقة البراهين كهذا العلم . ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تداولته الألسنة ، فيكفر بالتقليد المحض ، ويقول: لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم فى هذا العلم ! فإذا عرف السامع جحدهم ، نزل على أن الحق هو الجحد والإنكار للدين . وكم رأيت من ضل عن الحق بهذا العذر ولا مستند له سواه وإذا قيل له : الحاذق فى صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً فى كل صناعة ، فلا يلزم أن يكون الحاذق فى الفقة والكلام حاذقاً فى الطب ، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو ، بل لكل والحمق قد يلزمهم فى غيرها . فكلام الأوائل فى الرياضيات برهانى ، وفى الإلهيات تخمينى ، لا يعرف ذلك إلا من سبره وخاض فيه ، فهذا إذا قرر للمقلد على هذا الحد لم يقع منه موقع صناعة أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق ، وإن كان الجهل القبول ، بل تحمله غلبة الهوى ، وشهوة البطالة ، وحب التكايس[1] على أن يصر على

(١) الكيس : الذكى أو الفطن وحب التكايس أى حب التذاكى وإظهار الفطنة .

تحسين الظن بهم فى العلوم كلها .

فهذه آفة عظيمة ، لأجلها يجب زجر كل من يخوض فى تلك العلوم عن الخوض فيها ، فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما كانت من مبادىء علومهم سرى إليها شرهم وشؤمهم ، فقل من يخوض فيها إلا وينخلع من الدين ، وينحل عن رأسه لجام التقوى .

ـ **الآفة الثانية** : نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن أن الدين ينبغى أن ينصر بإنكار علم ينسب إليهم ، فأنكر جميع علومهم ، وادعى جهلهم فيها حتى أنكر قولهم فى الكسوف والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فإذا قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك فى برهانه ، لكن اعتقد أن الاسلام مبنى على الجهل وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حباً وللإسلام بغضاً ، ولقد عظمت على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، وليس فى الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفى والإثبات ، ولا فى هذه العلوم تعرض للأمور الدينية ، وقوله ﷺ : « **إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى ، لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله تعالى وإلى الصلاة** [١] ، ليس فى هذا ما يوجب إنكار علم الحساب المعرف لسير القمر والشمس واجتماعهما ومقابلتهما على وجه مخصوص . أما قوله عليه الصلاة والسلام : « **لكن الله إذا تجلى لشىء خضع له** »[٢] ، فليس توجد هذه الزيادة فى صحيح أصلاً .
فهذا حكم الرياضيات وآفاتها [٣].

---

(١) حديث صحيح متفق عليه رواه البخارى ومسلم .

(٢) حديث صحيح متفق عليه رواه البخارى ومسلم من حديث أبى مسعود البدرى والمعنى أن الشىء الذى يعرف الله عز وجل وقدرته لابد أن يذل له حتى ولو كان جماداً . قال تعالى : ﴿ فلما تجلى للجبل جعله دكا ﴾ .

(٣) آفاتها : أى أمراضها ودائها .

٢ ـ وأما المنطقيات : فلا يتعلق شيء منها بالدين نفياً وإثباتاً[١] ، بل هو نظر فى طرق الأدلة والمقاييس ، وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها ، وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبة . وأن العلم إما تصور : وسبيل معرفته الحد، وإما تصديق : وسبيل معرفته البرهان ، وليس فى هذا ما ينبغى أن ينكر ، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر فى الأدلة ، وإنما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات ، وبزيادة الاستقصاء فى التعريفات ، والتشبعات .

ومثال كلامهم فيه قولهم : إذا ثبت أن كل « أ » : « ب » لزم أن بعض « ب » : « أ » ، أى ثبت أن كل إنسان حيوان لزم أن بعض الحيوان إنسان . ويعبرون عن هذا بأن الموجبة الكلية تنعكس موجبة جزئية . وأى تعلق لهذا بمهمات الدين حتى يجحد وينكر ؟ فإذا أنكر لم يحصل من إنكاره عند أهل المنطق إلا سوء الاعتقاد فى عقل المنكر ، بل فى دينه الذى يزعم أنه موقوف على مثل هذا الإنكار . نعم لهم نوع من الظلم فى هذا العلم ، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يعلم أنها تورث اليقين لا محالة ، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط ، بل تساهلوا غاية التساهل، وربما ينظر فى المنطق أيضاً من يستحسنه ويراه واضحا ، فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات الإلهية .

فهذه الآفة أيضاً متطرقة إليه .

٣ ـ وأما علم الطبيعيات : فهو بحث عن أجسام العالم ، السماوات وكواكبها ، وما تحتها من الاجسام المفردة : كالماء ، والهواء ، والتراب ، والنار، ومن الاجسام المركبة : كالحيوان ، والنبات ، والمعادن ، وعن أسباب تغيرها واستحالتها وامتزاجها . وذلك يضاهى بحث الطبيب عن جسم الإنسان، وأعضائه الرئيسية والخادمة ، وأسباب استحالة مزاجها ، وكما ليس من شرط

---

(١) ولشيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية كتاب عظيم فى نقد المنطق فأنظره .

الدين إنكار علم الطب فليس من شرطه أيضاً إنكار ذلكِ العلم إلا فى مسائل مبينة ذكرناها فى كتاب « تهافت الفلاسفة » ، وما عداها مما يجب المخالفة فيها ، فعند التأمل يتبيين أنها مندرجة تحتها ، وأصل جملتها أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها ، بل هى مستعملة من جهة فاطرها . والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره لا تعمل بنفسها ، بل لا فعل لشىء منها بذاته عن ذاته .

٤ ـ وأما الإلهيات : ففيها أكثر أغاليطهم ، وما قدروا على الوفاء بالبرهان على ما شرطوا فى المنطق ، ولذلك كثر اختلاف بينهم فيها ، ولقد قرب مذهب أرسطاطاليس فيها من مذاهب الإسلاميين ، على ما نقله الفارابى وابن سينا ، ولكن مجموع ، ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً ، يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها ، وتبديعهم فى سبعة عشر . ولإبطال مذهبهم فى هذه المسائل العشرين صنفنا كتاب « التهافت » ، وأما المسائل الثلاث فقد خالفوا فيها كافة الإسلاميين ، وذلك فى قولهم :

أ ـ إن الأجساد لا تحشر ، وإنما المثاب والمعاقب هى الروح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية .

ولقد صدقوا فى إثبات الروحانية ، فإنها كائنة أيضاً ، ولكن كذبوا فى إنكار الجسمانية ، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به .

ب ـ ومن ذلك قولهم : إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات ، وهذا أيضاً كفر صريح ، بل الحق أنه : ﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ﴾[1] .

جـ ـ ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته ، ولم يذهب أحد من المسلمين

(١) سورة سبأ الآية ٣

وقوله : (لايعزب عنه) : أى لايغيب عنه ولايخفى عليه

إلى شيء من هذه المسائل .

وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات ، وقولهم : إنه عالم بالذات ، لا بعلم زائد علم الذات ، وما يجرى مجراه ، فمذهبهم فيه قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك ، وقد ذكرنا فى كتاب « فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » ما يتبين فيه فساد رأى من يسارع إلى التكفير فى كل ما يخالف مذهبه .

٥ ـ وأما السياسيات : فجميع كلامهم فيها راجع الى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية والإيالة[١] السلطانية ، فإنما أخذوها من كتب الله سبحانه وتعالى المنزلة على الانبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء .

٦ ـ وأما الخلقية : فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجناسها وأنواعها ، وكيفية معالجتها ومجهادتها ، وإنما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتألهون المثابرون على ذكر الله عز وجل ، وعلى مخالفة الهوى وسلوك الطريق إلى الله عز وجل بالإعراض عن ملاذ الدنيا ، وقد انكشف لهم فى حالاتهم من أخلاق النفس وعيوبها ، وآفات أعمالها ما صرحوا بها ، فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم توسلاً بالتجمل بها الى ترويج باطلهم ، ولقد كان فى عصرهم ، بل فى كل عصر ـ جماعة من المتأهين ، لا يخلى الله سبحانه العالم منهم ، فإنهم أوتاد الارض ، ببركاتهم تنزل الرحمة على أهل الأرض ، كما ورد فى الخبر ، حيث قال ﷺ: « **بهم تمطرون ، وبهم ترزقون ، ومنهم كان أصحاب الكهف** » [٢] ، وكانوا فى سالف الأزمة على ما نطق به القرآن .

فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية بكتبهم آفتان : آفة فى حق

---

(١) أى الولاية والحكم

(٢) حديث صحيح رواه البخارى والترمذى فى سننه .

القابل ، وآفة فى حق الراد :

أ ـ أما الآفة التى فى حق الراد فعظيمة ، إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مدونا فى كتبهم ، ومزدوجا بباطلهم ، ينبغى أن يهجر ولا يذكر ، بل ينكر على كل من يذكره ، إذ لم يسمعوه أولاً إلا منهم ، فسبق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطل ، لأن قائله مبطل ، كالذى يسمع من النصرانى قول : لا إله إلا الله ، عيسى رسول الله ، فينكره ، ويقول : هذا كلام النصارى ، ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصرانى كافر باعتبار هذا القول ، أو باعتبار إنكاره لنبوة محمد ﷺ ؟ ! فإن لم يكن كافرا إلا باعتبار إنكاره فلا ينبغى أن يخالف فى غير ما هو به كافر ، مما حق فى نفسه ، وإن كان أيضاً حقاً عنده ، وهذه عادة ضعفاء العقول ، يعرفون الحق بالرجال ، لا الرجال بالحق ، والعاقل يقتدى بقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب[١] رضى الله عنه ، حيث قال : **لا تعرف الحق بالرجال بل اعرف الحق تعرف أهله** . فالعاقل يعرف الحق ، ثم ينظر فى نفس القول ، فإن كان حقاً قبله ، سواء كان قائله محقاً أو مبطلاً ، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من تضاعيف كلام أهل الضلال ، عالماً بأن معدن الذهب الرغام . ولا بأس على الصراف إن أدخل يده فى كيس القلاب[٢] ، وانتزع الإبريز الخالص من الزيف والبهرج، مهما كان واثقاً ببصيرته ، وإنما يزجر عن معاملة القلاب البدوى ، دون الصير فى البصير ، ويمنع من ساحل البحر الاحمق الاخرق [٣] ، دون السباح الحاذق ، ويصد عن مس الحية الصبى دون المعزم البارع .

ولعمرى ! لما غلب على اكثر الخلق ظنهم بأنفسهم البراعة والحذاقة ،

(١) على بن أبى طالب بن عبد المطلب الهاشمى القرشى أبو الحسن رابع الخلفاء الراشدين وأمير المؤمنين وأحد العشرة المبشرين بالجنة وابن عم النبى وصهره انظر ترجمته فى كتاب صفة الصفة لابن الحوزى الجزء الأول .

(٢) كيس القلاب : كيس توضع فيه النقود للتميز بين الصحيح والمزيف منها .

(٣) الأخرق : الدنئ الدى لا يحسن أن يصنع شئ .

وكمال العقل ، وتمام الآلة فى تمييز الحق عن الباطل ، والهدى عن الضلالة، وجب حسم الباب فىٰ زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلال ما أمكن ، إذ لا يسلمون عن الآفة الثانية ـ التى سنذكرها ـ أصلاً ، وإن سلموا عن الآفة التى ذكرناها .

ولقد اعترض ـ على بعض الكلمات المثبوتة فى تصنيفنا فى أسرار علوم الدين ـ طائفة من الذينٰ لم تستحكم في العلوم سرائرهم ، ولم تنفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم ، وزعمت أن تلك الكلمات من كلام الأوائل ، مع أن بعضها من مولدات الخواطر ، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر ، وبعضها يوجد فى الكتب الشرعية ، وأكثرها موجود معناه فى كتب الصوفية . وهب أنها لم توجد إلا فى كتبهم ، فإذا كان ذلك الكلام معقولا فى نفسه ، مؤيداً بالبرهان ، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلا ينبغى أن يهجر وينكر ! فلو فتحنا هذا الباب ، وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر كل مبطل ، للزمنا أن نهجر كثيراً من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من آيات القرآن ، وأخبار الرسول ﷺ ، وحكايات الصوفية ، وكلمات الحكماء لأن صاحب كتاب « إخوان الصفا » [1] وأوردها فى كتابه مستشهداً بها ، ومستدرجاً قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله ، ويتداعى ذلك الى ان يستخرج المبطلون الحق من أيدينا لإيداعهم إياها كتبهم . وأقل درجات العالم ان يتميز عن العامى الغمر[2] ، فلا يعاف العسل ، وإن وجده فى محجمة الحجام ، ويتحقق أن المحجمة لا تغير ذات العسل ، فإن نفرة الطبع منه مبنية على جهل عاميى منشؤه أن المحجمة إنما صنعت للدم المستقذر ، فيظن ان الدم مستقذر ، لا لكونه فى المحجمة ، ولكنه مستقذر لصفة فى ذاته ، فإذا عدمت هذه الصفه فى العسل ، فكونة فى ظرفه لا يكسبه تلك الصفة ، فلا

---

(١) إخوان الصفا : هم فرقه من فلاسفة الاسلام التى ضلت الطريق النبوى ولهم معتقداتهم الباطله وأقوالهم الكفرية منها أن النبوة اكتسابا وليست وحياً .

(٢) أى قليل التجربة .

ينبغي ان يوجب له الاستقذار وهذا وهم باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق . فمهما نسبت الكلام واسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم قبلوه وإن كان باطلا ، وإن أسندته إلى قائل ساء فيه اعتقادهم ردوه وإن كان حقاً ، فأبداً يعرفون الحق بالرجال ، ولا يعرفون الرجال بالحق ، وهو غاية الضلال ! هذه آفة الراد .

ب ــ الآفة الثانية آفة القبول : فإن من نظر فى كتبهم كـ « إخوان الصفا » وغيره ، فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية ، ،الكلمات الصوفية ، ربما استحسنها وقبلها ، وحسن اعتقادة فيها ، فيسارع إلى قبول باطلهم الممزوج به لحسن ظن حصل فيما رآه واستحسنه ، وذلك نوع استدراج إلى الباطل .

ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم لما فيها من الغرور والخطر، وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق الشطوط ، يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب ، وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيات ، يجب صون الأسماع عن مختلط تلك الكلمات ، وكما يجب على المعزم أن لا يمس الحية بين يدى ولده الطفل ، إذا علم انه سيقتدى به ، ويظن أنه مثله ، بل يجب عليه أن يحذره ، بأن يحذر هو فى نفسه ولا يمسها بين يديه ، فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله ، وكما أن المعزم الحاذق إذا أخذ الحية ، وميز بين الترياق والسم ، واستنزع منه الترياق وأبطل السم ، فليس له أن يشح بالترياق على المحتاج إليه ، وكذلك الصراف الناقد البصير إذا أدخل يده فى كيس القلاب ، وأخرج منه الإبريز الخالص ، واطرح الزيف والبهرج ، فليس له أن يشح بالجيد المرضى على من يحتاج إليه ، وكذلك العالم ، وكما أن المحتاج إلى الترياق ، إذا اشمأزت نفسه منه ، حيث علم أنه مستخرج من الحية التى هى مركز السم ، وجب تعريفه ، والفقير المظطر إلى المال إذا نفر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلاب وجب تنبيهه على

أن نفرته جهل محض ، هو سبب حرمانه من الفائدة التى هى مطلبه ، وتحتم تعريفه ان قرب الجوار الزيف والجيد لا يجعل الجيد زيفاً ، كما لا يجعل الزيف جيدا ، فكذلك قرب الجوار بين الحق والباطل لا يجعل الحق باطلا ، كما لا يجعل الباطل حقاً .

فهذا مقدار ما أردنا ذكره من آفة الفلسفة وغائلتها .

* * *

القول فى مذهب العليم وغائلته

ثم إنى لما فرغت من علم الفلسفة ، وتحصيله ، وفهمه ، وتزييف ما يزيف منه ، علمت أن ذلك أيضاً غير وافٍ بكمال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات . وكان قد نبغت نابغة التعليمية ، وشاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق ، عنّ لى ان أبحث فى مقالاتهم ، لأطلع على ما فى كنانتهم . ثم اتفق أن قد ورد علي أمر جازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب ، يكشف عن حقيقة مذهبهم . فلم تسعنى مدافعته ، وصار ذلك مستحثاً من خارج ، ضميمة للباعث الأصلى من الباطن ، فانتبذت لطلب كتبهم ، وجمع مقالاتهم ، وكان بلغنى بعض كلماتهم المستحدثه التى ولدتها خواطر أهل العصر ، لا على المناهج المعهود من سلفهم فجمعت تلك الكلمات ، فرتبتها ترتيباً محكماً مقارباً للتحقيق ، واستوفيت الجواب عنها ، حتى أنكر علي بعض أهل الحق مبالغتى فى تقرير حجتهم ، وقال : هذا سعى لهم ، فإنهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها ، وترتيبك إياها .

وهذا الإنكار من وجه حق ، فقد أنكر أحمد بن جنبل[1] على الحارث المحاسبى[2] رحمهما الله تصنيفه فى « الرد على المعتزلة » ، فقال الحارث : الرد على المبتدعة فرض ، فقال أحمد : نعم ، ولكن حكيت شبههم أولا ، ثم أجبت عنها ، فبم تأمن أن يطالع فى الجواب ، أو ينظر فى الجواب ولا يفهم كنهه ؟

وما ذكره أحمد رضى الله عنه حق ، ولكن فى شبهة لم تشتهر ولم تنتشر، فأما إذا انتشرت فالجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية . نعم ، ينبغى أن لا يتكلف لهم شبهة لم يتكلفوها ، ولم أتكلف أنا ذلك ، بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابى المختلفين إلى، بعد أن كان قد التحق بهم ، وانتحل مذهبهم ، وحكى أنهم يضحكون من تصانيف المصنفين فى الرد عليهم ، بأنهم لم يفهموا بعد حجتهم . ثم ذكر تلك الحجة وحكاها عنهم ، فلم أرض لنفسى أن يظن أنى فى الغفلة عن أصل حجتهم ، فلذلك أوردتها ، ولا ان يظن بى أنى ـ وإن سمعتها ـ لم أفهمها ، فلذلك قررتها .

والمقصود ، أنى قررت شبههم إلى أقصى الإمكان ، ثم أظهرت فسادها بغايه البرهان .

والحاصل : أنه لا حاصل عند هولاء ، ولا طائل لكلامهم .

ولولا سوء بصيرة الصديق الجاهل ، لما انتهت تلك البدعة ـ مع ضعفها ـ إلى هذه الدرجة ، ولكن شدة التعصب دعت الذابين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم فى مقدمات كلامهم ، وإلى مجادلتهم فى كل ما نطقوا ،

(١) هو أحمد بن محمد بن حنبل امام المذهب الحنلى وأحد الأئمة الأربعة ومن أهم مصنفاته «المسند» الذى يحتوى على ثلاثين ألف حديث .

(٢) هو الحارث بن اسد المحاسبى من العلماء بالاصول والمعاملات وهو من أكابر الصوفية ومن مصنفاته الرعاية لحقوق الله عز وجل .

فجاحدوهم فى دعواهم الحاجة إلى التعليم وإلى المعلم ، وفى دعواهم أنه : لا يصلح كل معلم ، بل لا بد من معلم معصوم . وظهرت حجتهم فى إظهار الحاجة إلى التعليم وإلى المعلم ، وضعف قول المنكر فى مقابلته ، فاغتر جماعة بذلك ، وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقه ، بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلم ، وأنه لا بد وأن يكون المعلم معصوماً ، لكن معلمنا المعصوم هو محمد ﷺ

فإذا قالوا : هو ميت ؟ فنقول : ومعلمكم غائب . فإذا قالوا : معلمنا قد علم الدعاة وبثهم فى البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل . فنقول : ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم فى البلاد ، وأكمل التعليم إذا قال الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[١] . وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا يضر غيبته فبقى قولهم : كيف تحكمون فى ما لم تسمعوه ، أبالنص ولم تسمعوه ، أم بالاجتهاد والرأى وهو مظنة الخلاف ؟ فنقول : نفعل ما فعله معاذ[٢] إذ بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن وأمره أن يحكم بالنص عند وجود النص ، وبالإجتهاد عند عدمه ، بل كما يفعله دعاتهم إذا بعدوا عن الإمام الى أقاصى البلاد ، إذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص ، فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع الغير المتناهية ، ولا يمكنهم الرجوع فى كل واقعة إلى بلدة الإمام ، وإلى أن يقطع المسافة ويرجع ، فيكون المستفى قد مات ، وفات الانتفاع بالرجوع ، فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق إلا أن يصلى بالاجتهاد ، إذا لو سافر إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة لفات وقت الصلاة . فإذا ، جازت الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن . ويقال : إن المخطىء فى الاجتهاد له أجر واحد ،

---

(١) سورة المائدة آية ٣

(٢) رواه أحمد فى مسنده

وللمصيب أجران[1] . فكذلك فى جميع المجتهدات ، وكذلك أمر صرف الزكاة إلى الفقير ، فربما يظنه فقيرا باجتهاده ، وهو غنى باطناً بإخفائه حاله ، فلا يكون مؤاخذا به وإن أخطأ ، لأنه لم يؤاخذ إلا بموجب ظنه ، فإن قال : ظن مخالفه كظنه ؟ فأقول : هو مأمور باتباع ظن نفسه ، كالمجتهد فى القبلة يتبع ظنه ، وإن خالفه غيره . فإن قيل : فالمقلد يتبع الشافعى[2] أم أبا حنيفة[3] رحمهما الله أمْ غيرهما ؟ فأقول : المقلد فى القبلة عند الاشتباه ، إذا اختلف عليه المجتهدون ، كيف يصنع ؟ فسيقول : له مع نفسه اجتهاد فى معرفة الأفضل الأعلم بدلائل الثبلة ، فيتبع ذلك الجتهاد ، فكذلك فى المذاهب .

فرد الخلق إلى الاجتهاد ضرورة الأنبياء والأئمة ، مع العلم بأنهم يخطئون ، بل قال رسول الله ﷺ : أنا أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ، أى أنا أحكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود ، وربما أخطىء فيه ، ولا سبيل للأنبياء إلى الأمن من الخطأ فى مثل هذه المجتهدات ، فكيف يطمع فى ذلك غيرهم؟ ولهم ها هنا سؤلان : أحدهما قولهم هذا وإن صح فى المجتهدات فلا يصح فى قواعد العقائد ، إذا المخطىء فيه غير معذور ، فكيف السبيل إليه ؟ فأقول : قواعد العقائد ، يشتمل عليها الكتاب والسنة ، وما وراء ذلك من التفصيل المتنازع فيه ، يعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاط المستقيم ، وهى الموازين التى ذكرها الله تعالى فى كتابه ، وهى خمسة ذكرتها فى كتاب « القسطاط المستقيم »[4] ، فإن قيل : خصومك يخالفونك فى ذلك الميزان ؟ فأقول : لا

---

(١) ورواه البخارى بلفظ آخر « إذا حكم الحاكم احتهد ثم اصاب فله أجر ان وإذا حكم فاحتهد ثم أخطأ فله أحر » .

(٢) الإمام الشافعى هو محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمى القرشى المطلب أحد الأئمة الأربعة وكان من أفقه الناس ومن كتبه « الأم » واحكام القرآن »

(٣) أبو حنيفة هو النعمان بن ثابت التميمى بالولاء وكان فقيهاً حسن المنطق والصورة جهورى الصوت وكان قوى الحجة .

(٤) الموازين هى : الميزان الأكبر من موازين التعادل الميزان الأوسط والميزان الأصغر وميزان التلازم وميزان التعاند .

يتصور أن فيهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه ، إذا لا بخالف فيه أهل التعليم ، لأنى استخرجته من القرآن وتعلمته منه ، ولا يخالف فيه أهل المنطق ، لأنه موافق لما شرطوه فى المنطق ، غير مخالف له ، ولا يخالف فيه المتكلم لأنه موافق لما يذكره فى أدله النظريات ، وبه يعرف الحق فى الكلاميات . فإن قال: فإن كان فى يدك مثل هذا الميزان فلم لا ترفع الخلاف بين الخلق ؟ فأقول : لو أصغوا إلي لرفعت الخلاف بينهم ، وذكرت طريق رفع الخلاف فى كتاب « القسطاط المستقيم » فتأمله لتعلم أنه حق ، وأنه يرفع الخلاف قطعاً لو أصغوا ـ ولا يصغون ـ إليه بأجمعهم ! بل قد أصغى إلى طائفة منهم فرفعت الخلاف بينهم ، وإمامك يريد رفع الخلاف بينهم مع عدم إصاغهم ، فلم لم يرفع الخـــلاف إلى الآن ؟ ولم لم يرفع علي ـ رضى الله عنه ـ وهو رأس الأئمة ؟ أو يدعى أنه يقدر على حمل كافتهم على الإصغاء قهراً ، فلم لم يحملهم إلى الآن ، ولأى يوم أجله ، وهل حصل بين الخلق بسبب دعوته إلا زيادة خلاف ، وزيادة مخالف ؟ نعم ! كان يخشى من الخلاف نوعاً من الضرر أن ينتهى إلى سفك الدماء ، وتخريب البلاد ، وإيتام الأولاد ، وقطع الطرق ، والإغارة على الأموال ، وقد حدث فى العالم ـ من بركات رفعكم الخلاف ـ من الخلاف ما لم يكن بمثله عهد .

فإن قال : ادعيت أنك ترفع الخلاف بين الخلق ، ولكن المتحيز بين المذاهب المتعارضة ، والاختلافات المتقابلة ، لم يلزمه الإصغاء إليك دون خصمك ، وأكثر الخصوم يخالفونك ، ولا فرق بينك وبينهم .

وهذا هو سؤالهم الثانى ، فأقول : وهذا أولاً ينقلب عليك ، فإنك إذا دعوت هذا المتحير إلى نفسك ، فيقول هذا المتحير : بم صرت أولى من مخاليفك ، وأكثر أهل العلم يخالفونك ؟ فليت شعرى ! بماذا تجيب ؟ أتجيب بأن تقول : أمامى منصوص عليه ؟ فمن يصدقك فى دعوى النص ،

وهو لم يسمع النص من الرسول ؟ وإنما يسمع دعواك مع تطابق أهل العلم على اختراعك وتكذيبك . ثم هب أنه سلم لك النص ،فإذا كان متحيراً في أصل النبوة ، فقال : هب أن إمامك يدلي بمعجزة عيسى عليه الصلاة والسلام فيقول : الدليل على صدقي أني أحيي أباك ،فأحياه ، فناطقني[1] بأنه محق ، فماذا أعلم صدقه ؟ ولم يعرف كافة الخلق صدق عيسى عليه السلام بهذه المعجزة ، بل عليه من الأسئلة المشكلة ما لا يدفع إلا بدقيق النظر العقلي، والنظر العقلي لا يوثق به عندك ، لا تعرف دَلالةَ المعجزة على الصدق مالم تعرف السحر والتمييز بينه وبين المعجزة ؛ لا تعرفه مالم تعرف أن الله تعالى لايضل عباده . وسؤال الإضلال وعسر تحرير الجواب عنه مشهور ، فبماذا تدفع جميع ذلك ؟ ولم يكن إمامك أولى بالمتابعة من مخالفة افيرجع إلى الأدلة النظرية التي ينكرها ، وخصمه يدلي بمثل الأدلة وأوضح منها . وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلاباً عظيماً،لو اجتمع أولهم وآخرهم على أن يحرروا عنه جواباً لم يقدروا عليه .

وإنما نشأ الفساد من جماعة من الضعفاء ناظروهم ، فلم يشتغلوا بالقلب ، بل بالجواب .وذلك مما يطول فيه الكلام ، وما لا يسبق سريعاً إلى الإفهام ، فلا يصلح للإفحام . فإن قال قائل : فهـا هو القلب ، فهل عنه جواب ؟ فأقول. نعم جوابه أن المتحير لو قال : أنا متحير ، ولم يبين المسألة التي هو متحير فيها ، يقال له : أنت كمريض يقول : أنا مريض ، ولا يذكر عين مرضه ويطلب علاجه . فيقال له : ليس في الوجود علاج للمرض المطلق ، بل لمرض معين ؛ من صداع أو إسهال أو غيرهما .فكذلك امتحير ينبغي أن يعين ماهو متحير فيه ، فإن عين المسألة عرفته الحق فيها بالوزن بالموازين الخمسة ، التي لا يفهمها أحد إلا ويعترف بأنه الميزان الحق الذي يوثق بكل

(١) أي رد عليّ بالمنطق .

ما يوزن به ، فيفهم الميزان ، ويفهم منه أيضاً صحة الوزن ، كما يفهم متعلم علم الحساب نفس الحساب ، وكون المحاسب المعلم عالماً بالحساب وصادقاً فيه، وقد أوضحت ذلك فى كتاب « القسطاس المستقيم » فى مقدار عشرين ورقة ، فليتأمل .

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم ، فقد ذكرت ذلك فى كتاب «المسظهرى » أولاً ، وفى كتاب « حجة الحق » ثانياً ، وهو جواب كلام لهم عُرض على ببغداد ، وفى كتاب «مفصل الخلاف » الذى هو اثنا عشر فصلاً ثالثاً، وهو جواب كلام عرض على بهمذان ، وفى كتاب « الدرج المرقوم بالجداول » رابعاً ، وهو من ركيك كلامهم الذى عرض على بطوس ، وفى كتاب « القسطاس المستقيم » خامساً ، وهو كتاب مستقل بنفسه ، مقصوده بيان ميزان العلوم ، وإظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم لمن أحاط به :

بل المقصود أن هؤلاء ليس معهم شيء من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء،بل هم مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام ،طالما جاريناهم فصدقناهم فى الحاجة إلى التعليم وإلى الإمام المعصوم ، وأنه الذى عيونوه ،ثم سألناهم عن العلم الذى تعلموه من هذا المعصوم وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها ، فضلاً عن القيام بحلها ! فلما عجزوا أحالوا على الإمام الغائب ، وقالوا : لا بد من السفر إليه .والعجب أنهم ضيعوا عمرهم فى طلب المعلم ، فى التبجح بالظفر به ، ولم يتعلموا منه شيئاً أصلاً كالمتضمخ بالنجاسة،يتعب فى طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله ، وبقى متضخماً بالخبائث .

ومنهم من ادعى شيئاً من عملهم ، فكان حاصل ما ذكره شيئاً من ركيك فلسفة فيثاغورس[1] ؛ وهو رجل من قدماء الأوائل ، ومذهبه أرَكُّ مذاهب الفلاسفة ، وقد رد عليه أرسطاطاليس، بل استرك كلامه واسترذله، وهو المحكى

(١) فيثاغورث هو عالم رياضى وفيلسوف يونانى وصاحب نظرية فيثاغورث الشهيرة فى الرياضيات .

فى كتاب « إخوان الصفا » وهو على التحقيق حشو الفلسفة .

فالعجب ممن يتعب طول العمر فى طلب العلم ،ثم يقنع بمثل ذلك العلم الركيك المستغث ، ويظنُّ أنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم ! فهؤلاء أيضاً جربناهم، وسبرنا ظاهرهم وباطنهم ،فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام ، وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلم ، ومجادلتهم إنكارهم الحاجة التعليم بكلام قوى مفحم ، حتى إذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد ، وقال هات علمهُ ، وأفدنا من تعليمه ! وقف ، وقال :الآن اذا سلمت لى هذا فاطلبه، فأنما غرضى هذا القدر فقط ، إذ علم أنه لو زاد على ذلك لا فتضح، ولعجز عن حل أدنى الإشكالات ،بل عجز عن فهمه ، فضلاً عن جوابه.

فهذه حقيقة حالهم ، فاخبرهم تقلهم[1] فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضاً .

* * *

القول فى طرق الصوفية

ثم إنى لما فرغتُ من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن عن غير الله عز وجل وتحليته بذكر الله عز وجل . وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ؛ مثل : « قوت القلوب » لأبى طالب المكى[2]، وكتب الحارث

(١) أى إذا جربت الناس وعرفتهم أبعدتهم عنك وابتعدت عنهم وقوله (تقلهم) أى تكرههم وتبعضهم

(٢) هو محمد بن على بن عطية الحارثى فقيه زاهد نشأ بمكة وسافر إلى البصرة توفى ٣٨٦ هجرية .

المحاسبى[1] ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد[2] ، والشبلى[3] ، وأبى يزيد البسطامى[4] قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام المشايخ ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت مايمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لى أن أخص خواصهم ، مالايمكن الوصول إليه بالتعليم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات.وكم من الفرق بين أن تعلم حد الصحة وحد الشبع ، وأسبابهما وشروطهما ، وبين أن تكون صحيحاً وشبعاناً ! ويبين أن تعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن تكون سكران ! بل السكران لايعرف حد السكر ، وعلمه وهو سكران وما معه من السكر شئ .! والصاحى يعرف حد السكر وأركانه وما معه من السكر شيء.والطبيب فى حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها ، وهو فاقد الصحة. فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه،وبين أن تكون حالك الزهد، وعزوف النفس عن الدنيا !

فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال ، لا أصحاب الأقوال . وأن مايمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، وبل الذوق والسلوك . وكان قد حصل معى ـ من العلوم التى مارستها ، والمسالك التى سكلتها فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية ـ إيمان يقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر .

فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت فى نفسى ، لا بديل

(١) هو الحارث بن أسد المحاسبى صاحب كتاب المكاسب والوصايا وغيرها ولد فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى وتوفى سنة ٢٤٣ هجرية .

(٢) الجنيد هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى زاهد عابد ورع من علماء الصوفية توفى سنة ٢٩٧ هجرية

(٣) هو دلف بن جحدر الشبلى ولد سنة ٢٤٧ هجرية كان عالما زاهداً ورعاً وتوفى سنة ٣٣٤ هجرية ،

(٤) هو طيفور بن عيسى البسطامى ولد ١٨٨ هجرية زاهد عابد فقيه توفى سنة ٢٦١ هجرية .

معين محرر ، بل بأسباب وقرائن ، وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلُها.

وكان قد ظهر عندى أنه لا مطمع لى فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ،وأن رأس ذلك كله قطعُ علاقة القلب عن الدنيا ب «التجافى[1] عن دار الغرور ،والإنابة إلى دار الخلود » ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى وأن ذلك لا يتمُ إلا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت أحوالى ، فإذا أنا منغمس فى العلائق ، وقد أحدقت بى من كل جانب ، ولاحظت أعمالى ـ وأحسنها التدريس والتعليم ـ فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمةٍ ، ولا نافعة فى طريق الآخرة .

ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس ، فإذا هى لم تكن خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار الصيت ، فتيقنت أنى ﴿ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾[2]، وأنى قد أشفيت على النار ، إن لم أشتغل بتلافى الأحوال.

فلم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار ، أصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأُحلُ العزم يوماً وأقدم فيه رجلاً ، وأؤخر عنه أخرى ، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرةً، إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة

فيفترها عشيةً فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى : الرحيل الرحيل افلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ! فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى

(١) التجافى عن الشيء :البعد عنه والاعراض عنه من جفا يجفوا (أعرض يعرض) .
(٢) التوبة ١٠٩.

تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار !

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه عارضة، إياك أن تطاوعها ، فإنها سريعة الزوال ، فإن أذعنت لها ، وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المظلوم ، الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم العالى عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت إليه نفسك ، ولا يتيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مئة ، وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار إذ أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة إلى ، فكان لا ينطق لسانى بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان حزناً فى القلب ، بطلت معه قوة الهضم ، ومراءة الطعام والشراب ، فكان لا تنساغ لى شربة ، ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدى إلى ضعف القُوى، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج ، إلا بأن يتروح السر عن الهمّ الملم .

ثمّ لمّا أحسست بعجزى ،وسقط بالكلية اختيارى ؛ التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له ؛ فأجابنى الذى ﴿ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[١] ، وسهل على قلبى الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب ، وأظهرت عذر الخروج إلى مكة ،وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام حذراً أن يطلع الخليفة[٢] ـ أعز الله أنصاره ـ وجملة الأصحاب على غرضى فى المقام بالشام ،فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد على عزم أن

(١) سورة النمل الآية ٦٢ .

(٢) وهو الخليفة المستظهر بالله .

لا أعاودها أبداً . واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون للإعراض ـ عما كنت فيه ـ سبب ديني ،إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين ، وكان ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾[1] .

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات ، وظن من بعُدَ عن العراق أن ذلك كان لاستشعارٍ من جهة الولاة ، وأما من قرب من الولاة فكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي والانكباب علي ، واعراضي عنهم ،وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون: هذا أمر سماوي ليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام ، وزمرة أهل العلم.

ففارقت بغداد ،وفرقت ما كان معي من المال ،ولم أدخر إلا قد الكفاف ، وقوت الأطفال ترخصاً ، فإن مال العراق رصد للمصالح ، لكونه وقفاً على المسلمين ،فلم أر في العالم مالاً يأخذه العالم لعياله أحل منه .

ثم دخلت الشام ، وأقمت بها قريباً من سنتين لاشغل لي إلا العزلة والخلوة ، والرياضة والمجاهدة ، اشتغالاً بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله عز وجل ،كما كنت حصلته من علم التصوف . فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي .

ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ،أدخل كل يوم إلى الصخرة،وأغلق بابها على نفسي .

ثم تحركت في داعية فريضة الحج ، والإستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله ﷺ بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله وسلامه عليه ، فسرت إلى الحجاز .

---

(١) سورة النجم آية ٣٠.

ثم جذبتنى الهممُ ،ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه . فآثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعيشة ، تغير فى وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة . وكان لا يصفو لى الحالُ إلا فى أوقات متفرقة ، لكنى مع ذلك لا أقطع طمعى منها ، فتدفعنى العوائق عنها وأعود إليها .

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ،وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لايمكن إحصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذى أذكره لينتفع به ؛ أنى علمتُ يقناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أذكى الأخلاق ، بل لو جُمع عقل العقلاء ، وحكمةُ الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ؛ لم يجدوا إليه سبيلاً . فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، فى ظاهرهم وباطنهم ؛ مقتبسةٌ من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة ، فماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها ـ وهى أول شرط من شروطها ـ تطهيرُ القلب بالكلية عما سوى الله عز وجل ، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة ـ استغراقُ القلب بالكلية بذكر الله عز وجل ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله . هذا آخرها بالإضافة إلى مالا يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها .وهى على التحقيق أول الطريقة ،وما قبل ذلك كالدهليز[1] للسالك إليه .

---

(١) الدهليز : أى الحارة أو الممر الواصل بين الدار والباب الخارجى وتجمع على دهاليز .

ومن أول الطريقة تبتدىء المكاشفات والمشاهدات ، حتى إنهم وهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد ،ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول مُعَبِّرٌ أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظة على خطأ صريح لايمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الجلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ . وقد بينا وجه الخطأ فى كتاب « المقصد الأسنى » ؛ بل الذى لا بسته تلك الحالة لاينبغى أن يزيد على أن يقول :

وكان ماكان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبرِ[١]

وبالجملة ،فمن لم يرزق منه شيئاً بالذوق ،فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم .

وكرامات الأولياء هى ـ على التحقيق ـ بدايات الأنبياء ، وكان ذلك أول حال رسول الله ﷺ حيث يتبتل[٢] حين أقبل إلى جبل حراء حببت إليه الخلوة حتى يخلو فيه بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب : إن محمداً يعشق ربه

وهذه الحالة يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها ، فمن لم يرزق الذوق فيتيقنها بالتجربة والتسامع ، إن أكثر معهم الصحبة ، حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقناً . ومن جالسهم استفاد منهم هذا الإيمان ، ف « هم القوم لا يشقى بهم جليسهم »[٣] ، ومن لم يرزق صحبتهم فليعلم إمكان ذلك يقيناً

(١) هده الأبيات تنسب لابن المعتز .

(٢) أى ينقطع للعبادة وينشغل عن الدنيا بأمور الآخرة .

(٣) حديث صحيح متفق عليه رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما
وذلك لأنهم إذا حلسوا لايغتابون أحداً ولايتحدثون فيما لايعنيهم بل كلامهم .قرآن وسنة ومزاحهم صلة وحب فحقا صدق رسول الله عندما وصفهم بأنهم القوم لايشقى جليسهم .

بشواهد البرهان ، على ما ذكرناه فى كتاب عجائب القلب من كتب « إحياء علوم الدين » .

والتحقيق بالبرهان علم ، وملابسة عين تلك الحالة ذوق ، والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن إيمان .

فهذه ثلاث درجات :﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[1].

ووراء هؤلاء قوم جهال ،هم المنكرون لأصل ذلك ، المتعجبون من هذا الكلام ، يستمعون ويسخرون ، ويقولون : العجب !إنهم كيف يهتدون ! وفيهم قال الله عز وجل :﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾[2] ﴿ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾[3].

ومما بان لى بالضرورة من ممارسة طريقتهم حقيقة النبوة وخاصيتها ،ولا بد من التنويه على أصلها لشدة مسيس الحاجة إليها .

* * *

---

(١) سورة المجادلة آية ١١ .

(٢) سورة محمد آية ١٦

(٣) سورة محمد آية ٢٣ .

القول فى
حقيقة النبوة
واضطرار كافة الخلق إليها

اعلم أن جوهر الإنسان فى أصل الفطرة [1] ، خلق خالياً ساذجاً لاخبر معه من عوالم الله عز وجل ،والعوالم كثيرة لا يحصيها إلا الله عز وجل ،كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾[2] وإنما أخبره عن العوالم بواسطة الإدراك ، وكل إدراك من الإدراكات خلق ليطلع الإنسان به على عالم من الموجودات ، ونعنى بالعالم أجناس الموجودات .

فأول ما يخلق فى الانسان حاسة اللمس ،فيدرك بها أجناساً من الموجودات: كالحرارة والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، واللين والخشونة ، وغيرها .واللمس قاصر عن إدراك الألوان والأصوات قطعاً ، بل هى كالمعدومة فى حق اللمس .

ثم يخلق له حاسة البصر ، فيدرك بها الألوان والأشكال وهى أوسع عالم المحسوسات .

ثم ينفتح السمع ، يسمع الأصوات والنعمات .

ثم يخلق له الذوق كذلك إلى أن يجاوز عالم المحسوسات ، فيخلق فيه التمييز، وهو قريب من سبع سنين ، وهو طور آخر من أطوار وجوده فيدرك فيه أموراً زائدة على عالم المحسوسات ، لا يوجد منها شىء فى عالم الحس .

---

(١) الفطرة : الخلقة التى يكون عليها كل مخلوق أول الخلق والطبيعة السليمة التى لم تشب بعيب قال تعالى ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ﴾ .

(٢) سورة المدثر آية ٣١ .

ثم يترقى إلى طور آخر ،فيخلق له العقل ، فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات ، وأموراً لا توجد فى الأطوار التى قبله .

ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب، وماسيكون فى المستقبل ، وأموراً أخر العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز ، وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها واستبعدها ، فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة واستبعدوها ، وذلك عين الجهل ؛ إذ لا مستند له إلا أنه طور لم يبلغه ، ولم يوجد فى حقه ، فيظن أنه غير موجود فى نفسه، والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان والأشكالَ ، وحُكى له ذلك ابتداء ؛ لم يفهمها ، ولم يعرفها . وقد قرب الله سبحانه ذلك إلى خلقه بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة ، وهو النوم ؛ إذ النائم يدرك ماسيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير ، وهذا لولم يجربه الإنسان من نفسه ـ وقيل له : إن من الناس من يسسقط مغشياً عليه كالميت ، ويزول عنه إحساسه ، وسمعه وبصره ؛ فيدرك الغيب ـ لأنكره ، وأقام البرهان على استحالته ، وقال : القوى الحساسة أسباب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها ، فبأن لا يدرك مع ركودها أولى وأحق ، وهذا نوع قياسى يكذبه الوجود والمشاهدة ، فكما أن العقل طور من أطوارالآدمى ، يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات ، والحواس وعزولة عنها ؛ فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر فى تورها الغيب ، وأمور لايدركها العقل .

والشك فى النبوة ، إما أن يقع فى إمكانها ، أو فى وجودها ووقوعها ، أو فى حصولها لشخص معين .

ودليل إمكانها وجودها ، ودليل وجودها وجود معارف فى العالم لا يتصور أن تنال بالعقل ،كعلم الطب والنجوم ، فإن من بحث عنها علم بالضرورة

أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهى وتوفيق من جهة الله عز وجل ، ولا سبيل إليها بالتجربة . فمن الأحكام النجومية ما لا يقع إلا فى كل ألف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة ؟ وكذلك خواص الأدوية . فتبين بهذا البرهان ، أن فى الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور التى لا يدركها العقل ، وهو المراد بالنبوة لا أن النبوة عبارة عنها فقط ، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدى خواص النبوة ولها خواص كثيرة سواها .وما ذكرنا فقطرة من بحرها ، إنما ذكرناها لأن معك أنموذجا منها ، وهى مدركاتك فى النوم ، ومعك علوم من جنسها فى الطب والنجوم ، وهى معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلاً .

وأما ما عداها من خواص النبوة ، فإنما يدركه بالذوق من سلك طريق التصوف ، ولأن هذا إنما فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم ،ولولاه لما صدقت به ، فإن كان للنبى خاصة ليس لك منها أنموذج ، ولا تفهمها أصلاً ، فكيف تصدق بها ؟ وإنما التصديق بعد الفهم، وذلك الأنموذج يحصل فى أوائل طريق التصوف ، فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ، ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس إليه ،فهذه الخاصية الواحدة تكفيك للإيمان بأصل النوة .

فإن وقع لك الشك فى شخص معين ، أنه نبى أم لا ؟ فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله ، إما بالمشاهدة ، أو بالتواتر والتسامع ، فإنك إذا عرفت الطب والفقه ، يمكنك أن تعرف الأطباء والفقهاء بمشاهدة أحوالهم ، وسماع أقوالهم ؛ وإن لم تشاهدهم ، فمعرفة كون الشافعى[1] رحمه الله فقيها ، وجالينوس طبيباً ، معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير بل بأن تشاهدهم فتعلم شيئاً من الفقه والطب فتطالع كتبهما وتصانيفهما ، فيحصل لك علم

(١) هو أبو أدريس محمد بن عبد الله الشافعى صاحب كتاب الأم وديوان الشافعى وغير ذلك .

ضرورى بجالهما ، فكذلك إذا فهمت معنى النبوة فأكثرت النظر فى القرآن والأخبار ، يحصل لك العلم الضرورى بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة ، واعضد ذلك بتجربة ما قاله فى العبادات وتأثيرها فى تصفية القلوب ، وكيف صدق فى قوله عليه الصلاة والسلام : « **من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم** » [1] ، وكيف صدق فى قوله : « **من أعان ظالماً سلطه الله عليه** »[2] ، وكيف صدق فى قوله : « **من أصبح وهمومة هم واحد كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة** »[3] ، فإذا جربت ذلك فى ألف وألفين وألاف ، حصل لك علم ضرورى ، لا يتمارى فيه .

فمن هذه الطريق اطلب اليقين بالنبوة ، لا من قلب العصا ثعباناً وشقّ القمر ،فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ،ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ؛ ربما ظننت أنه سحر وأنه تخييل ، وأنه من الله تعالى إضلال ، فإنه : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾[4] .

وترد عليك أسئلة المعجزات ، فإذا كان مستند إيمانك ليس إلا كلاماً فى ثبوت المعجزات ، وفى وجه دلالة المعجزة ، فينخرم إيمانك بكلام قريب فى وجه الإشكال والشبهة عليها ،فليكن مثل هذا الخوارق إحدى القرائن والدلائل فى جملة نظرك ، حتى يحصل لك علم ضرورى ـ لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين ـ كالذى يخبره جماعة بخبر متواتر لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين بل من حيث لا يدرى ، ولا يخرج عن جملة ذلك ولا يتعين الآحاد ؛ فهذا هو الإيمان القوى العلمى .

وأما الذوق فهو كالمشاهدة والأخذ باليد ، ولا يوجد إلا فى طريق الصوفية .

---

(١) حديث صعيف صعفه الألبابى

(٢) حديث صعيف رواه ابں عساكر .

(٣) حديث صعيف رواه ابن ماحة

(٤) سورة فاطر آية ٨ .

فهذا القدر من حقيقة النبوة كاف فى الغرض الذى أقصده الآن وسأذكرهُ وقت الحاجة إلى ذكره .

* * *

القول فى سبب معاودة نشر العلم بعد الإعراض عنه

ثم إنى لما واظبت على العزلة والخلوة قريباً من عشر سنين ، وبان لى أثناء ذلك على الضرورة من أسباب لا أحصيها ، مرة بالذوق ، ومرة بالعلم البرهانى، ومرة بالقبول الإيمانى :أن الإنسان خلق من بدن وقلب ، وأعنى بالقلب حقيقة روحه التى هى محل معرفة الله تعالى ، دون اللحم والدم الذى يشارك فيه الميت والبهيمية ، وأن البدن له صحة بها سعادتهُ ، ومرض فيه هلاكهُ ، وأن القلب كذلك صحةُ وسلامةُ ، ولا ينجوُ ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[1] ، ولهُ مرضٌ فيه هلاكه إن لم يتدارك ، كما قال الله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾[2] ، وإن الجهل بالله سُم مُهلك ،وإن معصية الله تعالى بمتابعة الهوى داءُ ممرض ، وإن معرفةَ الله عز وجل ترياقهُ المحيى، وطاعتهُ بمخالفة الهوى دواؤه الشافى ، وإنه لاسبيل إلى معالجته بإزالة مرضه وكسب صحته إلا بأدوية ، كما لا سبيل إلى معالجة البدن إلا بذلك . وكما أن أدوية البدن كلها تؤثرُ فى كسب الصحة بخاصية فيها ، لا يدركها العقلاءُ ببضاعة العقل، بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها من الأنبياء ، الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء ، فكذلك بان لى ـ على الضرورة ـ أن

(١) سورة الشعراء الآية ٨٩ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٠ .

أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء ، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليدُ الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل .وكما أن تركيب الأدوية عن أخلاط مختلفة النوع والمدار ، وبعضها ضعف البعض فى الوزن ،فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر هو من قبل الخواص ،فكذلك العبادات التى هى أدوية داء القلوب ، مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار ،حتى إن السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة الظهر فى المقدار ، ولا يخلو عن سر من الأسرار هو من قبيل الخواص التى لايطلع عليها إلا بنور النبوة ، ولقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط بطريق العقل لها حكمة أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق ، لا عن سر إلهى فيها ، يقتضيها بطريق الخاصية ، وكما أن فى الأدوية أصولاً هى أركانها ، وزائد هى متحماتها ، لكل واحدة منها خصوصُ تأثير فى أعمال أصولها ، كذلك السنن والنوافل متممات لتكمل آثار أركان العبادات . وعلى الجملة : فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام أباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك ، وشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة وأخذ بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين . فإلى ها هنا مجرى العقل وعطاؤه ، وهو معزول عما بعد ذلك ، إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه .

فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة ،فى مدة الخلوة والعزلة .

ثم رأينا فتور الاعتقاد فى أصل النبوة ثم فى حقيقة النبوة ، ثم فى العمل بما شرحته النبوة ، وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق ، فنظرت إلى أسباب فتور الخلق ، وضعف إيمانهم بها ؛ فإذا هى أربعة :

١ ـ سبب من الخائضين فى علم الفلسفة

٢ ـ وسبب من الخائضين فى طريق التصوف .

٣ ـ وسبب من الخائضين المنتسبين إلى دعوى التعليم .

٤ ـ وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

فإنى تتبعت مدة آحاد الخلق أسأل من يقصر منهم فى متابعة الشرع وأسأله عن شبهته ، وأبحث عن عقيدته وسره ، وأقول له : مالك تقصر فيها ؟! فإن كنت تؤمن بالآخرة ، ولست تستعد لها ، وتبيعها بالدنيا ؛ فهذه حماقة! فإنك لا تبيع الاثنين بواحد ،فكيف تبيع مالا نهاية له بأيام معدودة ؟وإن كنت لا تؤمن ، فأنت كافر ! فدبر لنفسك فى طلب الإيمان ، وأنظر ما سبب كفرك الخفى الذى هو مذهبك باطنا ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، وإن كنت لاتصرح به تجملاً بالإيمان ، وتشرفاً بذكر الشرع .

فقائل يقول : إن هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر بذلك، وفلان من المشهورين بين الفضلاء لا يصلى ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل الأموال من الأوقاف ، وأموال اليتامى ، وفلان يأكل إدرار السلطان ، ولا يحترز عن الحرام وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة ! وهم أجرأ إلى أمثاله[1] .

وقائل ثان يدعى علم التصوف ، فيزعم ويقول : إنى بلغت مبلغا ترقيت عن الحاجة إلى العبادة !

وقائل ثالث يتعلل يشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة وهؤلاء هم الذين

---

(١) فالعبرة فى الانسان اتباعه للحق والشرع وليس العبرة بأنه فلان أو علان قال على بن أبى طالب رضى الله عنه (اعرف الحق تعرف أهله)

وقال (إنما يعرف الرجال بالحق ولايعرف الحق بالرجال)

وقيل (اقتضى بمن قدمات من الصالحين ولاتقتضى بمن هو حى فالفتنة أقرب إليه من شراك نعله)

ضلوا عن طريق التصوف .

وقائل رابع لقى أهل التعليم فيقول : الحق مشكل ، والطريق إليه مُعسَّر ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأى أهل الرأى ، والداعى إلى التعليم متحكم لا حجة له، فكيف يدع اليقين بالشك؟ » .

وقائل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ، ولكنى قرأت علم الفلسفة وأدركت حقيقة النبوة ، وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ، وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق ، وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات ، فما أنا من العوام الجهال حتى أدخل فى حجر التكليف ،وإنما أنا من الحُكماء أتبع الحكمة ،وأنا بصير بها ، مستغن فيها عن التقليد !.

هذا منتهى إيمان من قرأ مذهب فلسفة الإلهيين منهم ، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبى نصر الفارابى ، وهؤلاء هم المتجملون منهم بالإسلام .

وربما يرى الواحد منهم يقرأ القرآن ، ويحضُر الجماعات والصلوات ، ويعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر ، وأنواعاً من الفسق والفجور ! إذا قيل له : إن كانت النبوة غير صحيحة ، فلم تصلى ؟ فربما يقول :لرياضة الجسد ، ولعادة أهل البلد ، وحفظ المال والولد ! وربما قال : الشريعةُ صحيحة ، والنبوة حق ،فيقال له : لم تشرب الخمر ؟فيقول : إنما نهى عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء ، وأنا بحكمتى محترز عن ذلك ، وأنى أقصد به تشحيذ خاطرى[1] ، حتى إن ابن سينا ذكر فى وصية له كتب فيها : أنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، و أن يعظم الأوضاع

---

(١) أى فطنتى وقوة أنتباهى فنقول شحد الشرع حده وأعده إعداداً جيداً وشحد الخاطر ركز الانتباه وحرض عقله على معالجة الأمور بشكل سريع ودقيق. انظر المعجم الوسيط مادة (ش ح ذ) .

الشرعية ، ولا يقصر فى العبادات الدينية ، ولا يشرب الخمر تلاهياً بل يشربه تداوياً وتشافياً ، فكان منتهى حالته فى صفاء الإيمان ، والتزام العبادات أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافى ، فهذا إيمان من يدعى الإيمان منهم ، وقد انخدع بهم جماعة ، وزادهم انخداعاً ضعف اعتراض المعترضين عليهم ، إذ اعترضوا عليهم بمخادعة علم الهندسة والمنطق وغير ذلك مما هو ضرورى لهم ، على مابينا علته من قبل .

فلما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب ، ورأيت نفسى مليا [1] بكشف هذه الشبه ، حتى كان إفحام هؤلاء أيسر عندى، وأهون من شربة ماء ،لكثرة خوضى فى علومهم وطرقهم ، أعنى طرق الصوفية، والفلاسفة ، والتعليمية ، والمتوسمين من العلماء ،انقدح فى نفسى أن ذلك متعين فى هذا الوقت محتوم ؛ فما تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداءُ ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك ! ثم قلت فى نفسى : متى تستقل أنت بكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة ؟ والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل ، ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طريقهم إلى الحق ،لعاداك أهل الزمان بأجمعهم ، وأنى تقاومهم ،فكيف تعايشهم ،ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر ؟.

فترخصت بينى وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللاً بالعجز عن إظهار الحق بالحجة .فقدر الله سبحانه أن حرك داعية سلطان الوقت[2] من نفسه ، لا بتحريك من خارج ، فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الإلزام حداً كان ينتهى لو أصررت على الخلاف إلى حد الوحشة ، فخطر لى أن سبب الرخصة قد ضعف ،فلا ينبغى أن يكون باعثك

---

(١) أى مليئة ثقة واعجاباً..

(٢) سلطان الوقت : الوزير أبو المظفر فخر الملك

على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة ،وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ، ولم ترخص لنفسك بعسر معاناة الخلق ، والله سبحانه وتعالى يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾(١) ويقول عز وجل لرسوله وهو أعز خلقه عليه :﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾(٢) ويقول عز وجل بسم الله الرحمن الرحيم :﴿ يسٓ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾(٣) فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات ،فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية ، وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدرها الله عز وجل على رأس هذه المئة ، وقد وعد الله عز وجل بإحياء دينه على رأس كل مئة(٤) ، فاستحكم الرجاء، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، ويسر الله تعالى الحركة إلى نيسابور ، للقيام بهذا المهم في ذى العقدة من سنة تسع وتسعين وأربع مئة ، وكان الخروج من بغداد في

---

(١) سورة العنكبوت آية ١ ـ ٣ .

(٢) سورة الانعام آية ٣٤

(٣) سورة يس الآيات ١ : ١١

(٤) أى يبعث عالماً فذاً مدققا على رأس كل مائة سنة يجدد للأمة دينها فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »

ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وأربع مئة ، وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة. وهذه حركة قدرها الله تعالى ،وهى من عجائب تقديراته التى لم يمكن لها انقداح فى القلب فى هذه العزلة ، كما لم يكن الخروج من بغداد ، والنزوع عن تلك الأحوال مما يخطر إمكانه بالبال أصلاً ، ولله تعالى مقلب القلوب والأحوال ،وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن[1] وأنا أعلم أنى وإن رجعت إلى نشر العلم فما رجعت ، فإن الرجوع عود على ماكان ، وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى به يكتسب الجاه ، وأدعو إليه بقولى وعملى، وكان ذلك قصدى ونيتى . وأنا الآن أعود إلى العلم الذى به يترك الجاه ، ويعرف به سسقوط رتبة الجاه .

هذا هو الآن نيتى ، وقصدى وأمنيتى ـ يعلم الله ذلك منى ـ وأنا أبغى أن أصلح نفس وغيرى ، ولست أدرى أأصل إلى مرادى ، أم أخترم دون غرضى؟ ولكنى أومن إيمان يقين ومشاهدة أنه «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم»[2] وإنى لم أتحرك ولكنه حركنى ، وإنى لم أعمل لكنه استعملنى ، فأسأله أن يصلحنى أولاً ، ثم يصلح بى غيرى ، وأن يهدينى أولاً ، ثم يهدى بى ، وأن يرينى الحق حقاً ،ويرزقنى اتباعه ،ويرينى الباطل باطلاً، ويرزقنى اجتنابه .

ونعود الآن ما ذكرناه من أسباب ضعف الإيمان بذكر طريق إرشادهم وإنقاذهم من مهالكهم ؛

أما الذين ادعوا الحيرة بما سمعوه من أهل التعليم فعلاجه ماذكرناه فى

---

(١) يقلبه ربنا تبارك وتعالى كيفما شاء فيصبح المرء مسلماً ويمس كافراً ويصبح مؤمناً وهكذا ولذلك كان رسول الله ﷺ يردد فى دعائه قائلا «يامقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك» وقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله «أصابع الرحمن كقلب واحد يصوفها حيث شاء » صحيح الاسناد .

(٢) حديث صحيح متفق عليه . قال رسول الله ﷺ « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ولاحول ولاقوة إلا بالله » .

كتاب « القسطاس المستقيم »، ولا نطول بذكره في هذه الرسالة .

وأما ما توهمه أهل الإباحة ، فقد حصرنا شبههم في سبعة أنواع ، وكشفناها في كتاب « كمياء السعادة » وأما من أفسد إيمانه بطريق الفلسفة، حتى أنكر أصل النبوة ، فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة ، بدليل وجود علم خواص الأودية والنجوم وغيرهما .وإنما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك . وإنما وأوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم ، لأنه من نفس علمهم. ونحن نبين لكل عالم بفن من العلوم ــ كالنجوم والطب والطبيعة والسحر والطلسمات مثلاً ــ من نفس علمه ببرهان النبوة .

وأما من أثبت النبوة بلسانه ،وسوى أوضاع الشرع على الحكمة ؛ فهو على التحقيق كافر بالنبوة ،وإنما هو مؤمن بحكيم له طالع بخصوص ، يقتضي طالعه أن يكون متبوعاً وليس هذا من النبوة في شيء أصلاً بل الإيمان بالنبوة : أن يقر بإثبات طور وراء العقل ، تنفخ فيه عين يدرك بها مدركات خاصة ، والعقل معزول عنها ،كعزل السمع عن إدراك المبصرات ،والبصر عن إدراك الأصوات ، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات ، فإن لم يجوز هذا فقد أقمنا البرهان على إمكانه ، بل على وجوده . وإن جوز هذا فقد أثبت أن هاهنا أموراً تسمى خواص ، لا يدور تصرف العقل حواليها أصلاً ، بل يكاد العقل يكذبها ويقضي باستحالتها . فإن وزن دانق[1] من الأفيون سم قاتل ،لأنه يجمد الدم في العروق لفرط برودته ، والذي يدعي علم الطبيعة يزعم أنه إنما برد المركبات بعنصري الماء والتراب ، فهما العنصران الباردان.ومعلوم أن أرطالاً من الماء والتراب لا يبلغ تبريدها في الباطن إلى هذا الحد .فلو أخبر طبيعي بهذا ــ ولم يجربه ــ لقال : هذا محال إلى هذا الحد . فلو أخبر طبيعي بهذا ــ ولم يجربه ــ لقال : هذا محال ، والدليل على استحالته أن فيه نارية وهوائية ،

(١) الدانق هو أحد العملات المتداولة في شبه الجزيرة العربية ويقدر تقريبا بسدس درهم .

والهـو ائية والنارية لا تزيدها برودة ، فنقـدر الكل ماء وتراباً ، فلا يوجب هذا الإفراط في التبريد ، فإن انضم إليه حاران فبأن لا يوجب ذلك أولى ،ويقـدر هذا برهانا ! وأكثر براهين الفلاسفة في الطليعات والإلهيات مبني على هذا الجنس، فإنهم يصورون الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه ، ومالم يألفوه قدروا استحالته ، لو لم تكن الرؤيا الصادقة مألوفة ، وادعى مدع أنه عند ركـود الحواس يعلم الغيب ؛ لأنكر ه المتصفون بمثل هذه العقول ، لو قيل لواحد : هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء ،وهو بمقدار حبة يوضع في بلدة ، فيأكل تلك البلدة بجملتها ، ثم يأكل نفسه فلا يبقى شيئاً من البلدة ومافيها ، ولا يبقى هو نفسه ؟ لقال : هذا محال ،وهو من جملة الخرافات ! وهذه حالة النار ، ينكرها من لم ير النار إذا سمعها . وأكثر إنكار عجائب الآخرة هو من هذا القبيل . فنقول للطبيعي :قد اضطررت إلى أن تقول : في الأفيون خاصية في التبريد ليست على قياس المعقول بالطبيعة ؛ فلم لا يجوز أن يكون في الأوضاع الشرعية من الخواص في مداواة القلوب وتصفيتها ، ما لا يدرك بالحكمة العقلية ، بل لا يتصور ذلك إلا بعين النبوة ؟ بل قد اعترفوا بخواص هي أعجب من هذا فيما أورده في كتبهم ، وهي من جملة الخواص العجيبة المجربة في معالجة الحامل التي عسر عليها الطلق .

يكتب هذا الشكل على خرقتين لم يصبهما ماء ، وتنظر إليهما الحامل بعينيها ، وتضعهما تحت قدميها ، فيسرع الولد في الحال إلى الخروج . وقد أقروا بإمكان ذلك وأوردوها في « عجائب الخواص » وهو شكل فيه تسعة بيوت ، يرقم فيها رقوماً مخصوصة ، ويكون جميع ما في جدول واحد خمسة عشر ؛ قرأته في طول الشكل أو في عرضه أو على التأريب[1] .

٨	٣	٤		د	ج	ح

(١) التأريب : أي الميل والانحراف

فليت شعرى[1] ! من يصدق بذلك ثم لم يسع عقله التصديق ، بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين ، والظهر بأربع ركعات ، والمغرب بثلاث ؛ هو لخواص غير معلومة بنظر الحكمة ،وسببها اختلاف هذه الأوقات . وإنما تدرك هذه الخواص بنور النبوة والعجب. أنا لو غيرنا العبارة إلى عبارة المنجمين لعضدها اختلاف هذه الأوقات ، فنقول : الشيء يختلف باختلاف الحكم والطالع ، بأن تكون الشمس فى وسط السماء ، أو فى الطالع ، أو فى الغارب ؛ حتى يبنوا على هذا فى تسييراتهم اختلاف العلاج وتفاوت الأعمار والآجال ، ولا فرق بين الزوال وبين كون الشمس فى وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين كون الشمس فى الغارب ؛ فهل لتصديق ذلك سبب إلا أن ذلك سمعه بعبارة منجم ، لعله جرب كذبه مئة مرة . ولا يزال يعاود تصديقه ، حتى لو قال له المنجم : إذا كانت الشمس فى وسط السماء ونظر إليها الكوكب الفلانى ، والطالع هو البرج الفلانى فلبست ثوباً جديداً فى ذلك الوقت قتلت فى ذلك الوقت ، وربما يقاسى فيه البرد الشديد وربما سمعه من منجم قد جرب كذبه مئتى مرة .

فليت شعرى ! من يتسع قلبه لقبول هذه البدائع ، ويضطر إلى الاعتراف بأنها خواص ، معرفتها معجزة لبعض الأنبياء ، فكيف ينكر مثل ذلك ،فيما يسمعه من قول بنى صادق مؤيد بالمعجزات ،لم يعرف قط بالكذب ولم لا يتسع 'فإن أنكر فلسفى إمكان هذه الخواص فى أعداد الركعات ، ورمى الجمار، وعدد أركان الحج ، وسائر تعبدات الشرع ؛ لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقاً أصلاً . فإن قال : قد جربت شيئاً من النجوم وشيئاً

(١) ليت شعرى كلمة تقال للتمنى أو الرجاء

من الطب ، فوجدت بعضه صادقاً ، فانقدح فى نفسى تصديقه ، وسقط من قلبى استبعاده ونفرته ، وهذا لم أجربه فأعلم وجوده وتحقيقه وإن أقررت بإمكانه، فأقول : إنك لا تقتصر على تصديق ما جربته بل سمعت أخبار المجربين وقلدتهم ،فاسمع أقوال الأنبياء فقد جربوا وشاهدوا الحق فى جميع ما ورد به الشرع ، واسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك .

على أنى أقول : وإن لم تجربه ، فيقضى عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعاً . فإنا لو فرضنا رجلاً بلغ وعقل ولم يجرب المرض ،فمرض ، وله والد مشفق حاذق بالطب ، يسمع دعواه فى معرفة الطب منذ عقل ، فعجن له والده دواءً ، فقال : هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك ، فماذا يقتضيه عقله ـ وإن كان الدواء مراً كريه المذاق ـ أن يتناول أو يكذب ؟ ويقول : أنا لا أعقل مناسبة هذا الدواء لتحصيل الشفاء ولم أجربه ؛ فلا أشك فى أنك تستحمقه إن فعل ذلك ، وكذلك يتحمقك أهل البصائر فى توقفك . فإن قلت : فبم أعرف شفقة النبى ﷺ ومعرفته بهذا الطب ؟ فأقول : وبم عرفت شفقة أبيك وليس ذلك أمراً محسوساً ، بل عرفتها بقرائن أحواله وشواهد أعماله فى مصادره وموارده علماً ضرورياً لاتتمارى فيه ؟

ومن نظر فى أحوال رسول الله ﷺ ، وما ورد الأخبار فى اهتمامه بإرشاد الخلق ، وتلطفه فى حق الناس بأنواع اللطف والرفق إلى تحسين الأخلاق ، وإصلاح ذات البين ، وتعمده إلى مايصلح به دينهم ودنياهم ، حصل له علم ضرورى ،بأن شفقته ﷺ على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده[1]

وإذا نظر إلى أعاجيب ماظهر له من الأفعال ، وإلى أعاجيب الغيب التى أخبر عنها فى القرآن على لسانه وفى الأخبار ، وإلى ما ذكره فى آخر الزمان

(١) فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قالا « ما رأيت شيئاً ينفعكم فى دينكم ودنياكم ومحياكم ومماتكم إلا أمرتكم به وما رأيت شيئاً يضركم فى دينكم ودنياكم ومماتكم إلا نهيتكم عنه فما نهيتكم عنه فانتهوا وماأمرتكم به فاتوا منه ما استطعتم » صحيح الاسناد .

وظهور ذلك كما ذكره ؛ علم علماً ضرورياً أنه بلغ الطور الذى وراء العقل ، وانفتحت له العين التى ينكشف منها الغيب الذى لا يدركه إلا الخواص ، والأمور التى لايدركها العقل .

فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضرورى بتصديق النبى عليه الصلاة والسلام، فجرب وتأمل القرآن وطالع الأخبار تعر ذلك بالعيان .

وهذا القدر كاف فى تنبيه المتفلسفة ، ذكرناه لشدة الحاجة إليه فى هذا الزمان . وأما السبب الرابع ـ وهو ضعف الإيمان بسبب سوء سيرة العلماء ـ فيداوى هذا المرض بثلاثة أمور :

أحدها : أن نقول :إن العالم الذى يزعم أنه يأكل الحرام معرفته بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر ولحم الخنزير والربا ، بل بتحريم الغيبة والنميمة والكذب ، وأنت تعرف ذلك وتفعله ، لا لعدم إيمانك بأنها معصية . بل لشهوتك الغالبة عليك ، فشهوته كشهوتك ، وقد غلبته كما غلبتك ، فعلمه بمسائل وراء هذه يتميز بها عنك ، لا يناسب زيادة زجر عن هذا المحظور المعين .

وكم من مؤمن بالطب لا يصبر عن الفاكهة ، وعن الماء البارد ، وإن زجرة الطبيب عنه ! ولا يدل ذلك على أنه غير ضار ، أو على أن الإيمان بالطب ليس بصحيح فهذا محمل هفوات العلماء .

الثانى : أن يقال للعامى : ينبغى أن تعتقد أن العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه فى الآخرة ، ويظن أن علمه ينجيه ، ويكون شفيعاً له حتى تساهل معه فى أعماله ، لفضيلة علمه ، وإن جاز أن يكون علمه زيادة حجة عليه ، فهو يجوز أن يكون زيادة درجة له ، وهو ممكن . فهو وإن ترك العمل ، فيدلى بالعلم . وأما أنت أيها العامى ! إذا نظرت إليه ، وتركت العمل وأنت عن العلم عاطل فتهلك بسوء عملك ، ولا شفيع لك.

الثالث :هو الحقيقة أن العالم الحقيقى لا يقارف [1]معصية إلا على سبيل الهفوة ، ولا يكون مصراً على المعاصى أصلاً إذا العلم الحقيقى مايعمل به ، ويعلم به أن المعصية سم مهلك ، وأن الآخرة خير من الدنيا ، ومن عرف ذلك لا يبيع الخير بما هو أدنى منه.

هذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التى يشتغل بها أكثر الناس فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله سبحانه وتعالى .وأما العلم الحقيقى فيزيد صاحبه خشية وخوفًا ورجاء ، وذلك يحول بينه وبين المعاصى إلا الهفوات التى لا ينفك عنها البشر فى الفترات ، وذلك لا يدل على ضعف الإيمان فالمؤمن مفتن تواب ،وهو بعيد عن الإصرار والإكباب .

هذا ما أردت أن أذكره فى ذم الفلسفة والتعليم وآفاتهما وآفات من أنكر عليهما ، لا بطريقة .

ونسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن آثره واجتباه ، وأرشده إلى الحق وهداه، وألهمه ذكره حتى لاينساه ، وعصمه عن شر نفسه حتى لا يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه .

* * *

(١) يقارف : أى لايفعل معصية ولايرتكبها نقول قارف الشيء أى اختلط به وارتكبه انظر مختار الصحاح مادة (ق ر ف)

الفهـــرس

دار ابن خلدون
للنشـــر والتوزيـع
الاسكندرية ـ ت ٤٤٤١٠٦٨ ـ ٤٤٥٩٧٢٣